

خواطر منهجية حول البحث العلمي: محاولات أولية لرصد بعض الأخطاء الشائعة عند إعداد البحث العلمي

علي بن إبراهيم النملة

أستاذ المكتبات والمعلومات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المستخلص: يتعرّض البحث العلمي في البلاد العربية للانتقاد الحاد؛ نظراً لحدودية الإنفاق عليه من موازنات الدول، وضعف العناية بمراكز البحوث والدراسات، بما في ذلك وضع الترجمة والنقل إلى اللغة العربية ومنها. جاءت هذه الخواطر المنهجية حول البحث العلمي في سبع وقفات تعمدت أن يكون التركيز فيها على الرسائل العلمية لنبيل درجة عليا على اعتبار أن الأصل في الدراسات العليا أن تُعدّ الباحثُ ليكون عالماً في مجاله يُمضي الباحث مدّةً طويلة وهو يضع أفكاره العلمية على الخك، حتى يتوصّل إلى موضوع البحث الذي ينوي السير فيه ويستقر على عنوانه. ثم يُعيّن للباحث مشرفٌ تكون مسؤوليته مباشرة عن سير البحث والباحث، ويُحسب الباحث والباحث على المشرف. الأصل في الباحث أو الباحثة ألا يطرق أبواب البحث حتى يمرّ بالجانب النظري في دراسته للبحث ومناهجه، ويُعدّ هذا مطلباً مهماً من متطلبات البحث.

لا تغفل هذه الورقة الظروف الخاصّة التي يعيشها الباحث السعودي، ثمّ الباحث العربي، من حيث عدم قدرته التامة على السيطرة على مصادر المعرفة، بسبب شحّ مصادر المعلومات المتاحة له، كالمكتبات ومراكز المعلومات وأوعية المعلومات المتوافرة فيها التقليدية منها والحديثة، رغم هذا التطور المحموم في التعامل مع المعلومة إلكترونيًا. ثمّ تبرز مشكلة التفرُّغ التي يندر تحقُّقها في الوسط العلمي المحلي، بين تكليفات علمية وإدارية للمعيدين والمعيدات، وانشغال الدارسين بأعمال علمية واجتماعية أخرى، لاسيّما بين الباحثات، أو إدارية لا تُعين على الصفاء الذهني للبحث العلمي، بل ربّما قيل إنّ حال البحث العلمي قد ازداد سوءاً، فزادت الشهادات العليا عن طريق المراسلة، أو الدراسة عن بُعد **distance learning** باستخدام وسائل الاتصال وتقنياته، أو ربما عن طرق أبواب مؤسسات علمية مهتونة في "صرف" الشهادات العليا.

وتقتضي التقاليد العلمية أن يُعطي الباحث مدّةً متوسّطة لإنجاز بحثه فيها. ومن الباحثين من ينجز البحث في غضون هذه المدّة، فلا يصل إلى نهايتها، ومن الباحثين من يحتاج إلى التمديد لإكمال بحثه. وتقتضي التقاليد العلمية أيضاً أن يسير البحث تحت ناظري المشرف، وأن يُتابع المشرف الباحث خطوةً خطوة، فيقرأ له. وكلّما قلّت وقفات القراءة والمناقشة بين المشرف والباحث كان ذلك مدعاةً لمزيد من الإلتقان.

من توجّهي الدقّة لدى بعض الباحثين التزامهم التأمّ بخطة البحث. وهذا مطلب ملزم، فقد يتيسّر للباحث أثناء سيره في بحثه أن هناك رغبة في الزيادة، أو الدمج بين تقسيمات البحث القائم على التطبيق العملي العلمي للخطة.

كما تقتضي التقاليد العلمية أن يُضخّ البحث والباحث للمناقشة، قبل أن يُقبل بحثه مؤهلاً له للمرحلة العلمية التي يصبو إليها، والتقاليد العلمية تقتضي أن يكون هناك أكثر من مناقش، بحضور المشرف أو المقرّر وإدارته للمناقشة، كما تقتضي بعض التقاليد العلمية أن يُختار المناقشون بعد الانتهاء من إعداد البحث، وبعد أن يُقرّ المشرف صلاحية الرسالة لتكوين لجنة المناقشة. والأولى أن تُكوّن لجنة المناقشة مع بداية انطلاق البحث.

لا بدّ من وجود ملحوظات على أيّ بحث. تقسّم الملحوظات على الرسالة عادةً إلى ثلاث فئات؛ الملحوظات المنهجية، والملحوظات اللغوية، والملحوظات العلمية. وتقوم الملحوظات المنهجية على أنّ هناك خطأً منهجياً سائداً تسير عليه الرسائل

العلمية. والأصل أن تكون هناك نقاط منهجية تمثل الحد الأدنى من المنهجية تتفق عليها الجامعات ومراكز البحوث العربية. ولا يسبغ استيراد مناهج البحث من مدارس أخرى لتكون مجالاً للتنافس غير العلمي بين هذه المؤسسات. الملحوظات المنهجية تزيد وتنقص بحسب سيطرة الباحث على مناهج البحث وتفاعله مع المدة التمهيديّة التي درس فيها نظرياً مناهج البحث، والأصل أنه قدّم فيها تقويماً واختياراً واحتجازها بتفوق. وهناك، ولا بُدَّ، ملحوظات لغوية هي من الأهمية بمكان، وعدم سلامة اللغة دليل على عدم وضوح الفكرة لدى الباحث، وسوء الصياغة مدعاة إلى سوء الفهم لدى القارئ، المستفيد من البحث. وقد شاعت بيننا أخطاء لا تُقبل جرى ذكر نماذج منها في الورقة.

أمّا الملحوظات العلمية فهي مع وجودها وكثرتها إلا أن لها خصوصيةً تنبع من الموضوع المبحوث، والقدرة العلمية على السيطرة عليه، من حيث دقّة المعلومات وصحّتها وحداثتها، ولذا فإنّه لا تعميم في الملحوظات العلمية.

المقدّمة:

يتعرّض البحث العلمي في البلاد العربية للانتقاد الحادّ؛ نظراً لمحدودية الإنفاق عليه من موازنات الدول وضعف العناية بمراكز البحوث والدراسات، بما في ذلك وضع الترجمة والنقل إلى اللغة العربية ومنها، مقابل ما ينفق على مرافق حيوية أخرى، قد لا يرى بعض المعنيين بالبحث العلمي من الأكاديميين وغيرهم أنها تدخل في أولويات التنمية المستدامة. وتكرّر مقولة أنّ ما ينفق على البحث العلمي لا يتعدى ١٪ من الناتج الوطني "القومي GNP" للبلاد العربية مجتمعةً. كما يتكرّر التوكيد أنّ وعي الأمة مهرون بما تسهم به في عمارة الأرض لا في دمارها. وعمارة الأرض كما دمارها تنطلق من البحث والدراسة.

لا تسعى هذه الخواطر المنهجية حول البحث العلمي إلى الخوض في هذه الإشكالية الذهنية المعتمدة على مدى إدراك الأمة لأهمية البحث العلمي ومدى اقتناعها به وإرادتها في الاتجاه هذه الوجهة. ترمي هذه الوقفات بظلالها في صلب البحث العلمي، من حيث الأداء والإجراء، وهو ما ترغب هذه الخواطر الدندنة حوله في محاولة لتأصيل المنهجية في إجراء البحوث وفحصها وتحكيمها ومناقشتها، مع مراعاة الظروف المختلفة التي يعاني منها البحث العلمي في البلاد العربية.

وقد تعمّدت هذه الخواطر أنّ يكون التركيز على الرسائل العلمية التي يقدّمها الباحثون والباحثات لنيل درجة علمية كالدبلومات وشهادات الماجستير والدكتوراه. وجرى تسمية هذه بالبحوث بدلاً من الرسائل رغبة في شمولية المصطلح واطراده.

وحيث إنّ هذه الوقفات سمّيت بالخواطر فهي تبقى في حدود الخواطر التي تنبئ عن وجهة نظر صاحبها ولا تتعمّد أنّ تدعي أنها هي الصواب وغيرها هو الخطأ. ولكنها مع هذا خواطر مبنية على خبرة وتجربة وممارسة مهما كانت متواضعة. فقد أتيح لصاحبها الاطلاع على عدد كبير من البحوث العلمية، سواء بالإشراف عليها أو بمناقشتها أو بتحكيماها.

الوقفة الأولى: المدخل

الأصل في الدراسات العليا أنّ تُعدّ الباحث ليكون عالماً في مجاله، يسهم في النهضة العلمية التي يعيشها العالم، فيقدّم جديداً، مهما كان ضئيلاً. ولقد برز عن هذا الطريق علماء يُشار لهم بالبنان، أثروا الحركة العلمية المحليّة والدولية. وبرزوا في تخصصاتهم، وأصبحوا أعلاماً فيها.

تراثنا العربي الإسلامي مليء بالشخصيات العلمية التي نقلتها لنا كتب التراجم التي تحفل بها المكتبة العربية الإسلامية. هؤلاء العلماء انطلقوا تلاميذ لدى علماء آخرين، توارثوا العلم. وهكذا تكون الحركة العلمية، علماء يتخرجون على أيدي علماء قبلهم.

تطوّرت الأساليب في "صنع العلماء"، حتّى وصلت إلى هذا التقليد العلمي، من خلال وجود مؤسسات تعليمية عليا، مهمّتها تشجيع البحث العلمي، المفضي إلى صنع العلماء. فظهرت إجراءات علمية لانتقاء القادرين على طرق أبواب العلم بقدراتهم الذاتية، وبما اكتسبوه من القابلية للمواصلة. من هذه الإجراءات، بعد إجراءات القبول للمرحلة الدراسية العليا، تضيق مجال البحث، من خلال اختيار موضوع متفرّد متميّز داخل التخصص العريض.

يُضفي الباحث مدّةً طويلة وهو يضع أفكاره العلمية على المحكّ، حتى يتوصّل إلى موضوع البحث الذي ينوي السير فيه، فإذا استقر الموضوع سعى إلى انتقاء العنوان الرئيسي والفرعي، وأضحى العنوان معبراً تعبيراً واضحاً عن المحتوى المراد بحثه، بدأ الباحث في وضع "الخطوط العريضة" للبحث، المتمثلة فيما نسّميه بخطّة البحث، أو مخطّط البحث. وتوافق عليه الجهات العلمية بالكلية، مثل مجلس القسم، ومجلس الكلية، والمجالس العلمية الأخرى، التي تسير حسب الأنظمة القائمة، ثم يُعين للباحث مشرفٌ تكون مسؤوليته مسؤولية مباشرة عن سير البحث والباحث، ويُحسب الباحث والبحث على المشرف. فإذا وُفق المشرف إلى باحثٍ جادٍ سار معه سيراً حسناً. وإذا وُفق الباحث إلى مشرفٍ مخلص سار معه سيراً حسناً كذلك. والحي يجيئك والميت يزيدك غبناً.

الوقفه الثانية: التمهيدية

الأصل في الباحث أو الباحثة ألاّ يطرق أبواب البحث حتى يمرّ بالجانب النظري في دراسته للبحث ومناهجه، ويُعدّ هذا مطلباً مهمّاً من متطلّبات البحث، وإذا تبيّن أنّ الباحث لم يسيطر على منهج البحث بعد تجاوزه للسنة التمهيدية "المنهجية"، ورغب في المواصلة، طُلبت منه قراءات إضافية فيفيد منها، ولذا فُعلّل الباحثين لا يتضابقون إذا ما طُلبت منهم قراءات إضافية، إذ مهما كانت الحال فلا يُعَدُّ الباحث الفائدة من القراءات الإضافية، بل ربّما رسم لنفسه خطّةً في القراءة الذاتية المتواصلة حول الموضوع، ولعله لا يعتقد أنّه سيطر على الموضوع، فتنتفي حاجته إلى مزيد من القراءات، وهذا وهمٌ لعلّه غير مستشّر بين الباحثين والباحثات. فالقراءة طريق التعلّم، وهي وسيلة مهمّة من وسائل الثقافة والمعرفة. (١)

الوقفه الثالثة: الظروف

قبل الولوج في الملحوظات المنهجية لا تغفل هذه الورقة الظروف الخاصّة التي يعيشها الباحث السعودي، ثمّ الباحث العربي، من حيث عدم قدرته التامّة على السيطرة على مصادر المعرفة، بسبب شحّ مصادر المعلومات المتاحة له، كالمكتبات ومرآكر المعلومات وأوعية المعلومات المتوفرة فيها التقليدية منها والحديثة، رغم هذا التطوّر المحموم في التعامل مع المعلومة إلكترونياً.

ولا يتمّ البحث العلمي للباحث إذا لم تنهت له الظروف العلمية التي تعينه - بعد عون الله تعالى - على الإبداع والإسهام في النهضة العلمية لأيّ تخصّص من التخصّصات.

(١) انظر: محمد رضوان الداية. المكتبة العربية ومنهج البحث. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩م. - ص ٣٢٣.

ثم تبرز مشكلة التفرُّغ التي يندر تحقُّقها في الوسط العلمي المحلي، بين تكاليفات علمية وإدارية للمعيدين والمعيدات، وانشغال الدارسين بأعمال علمية واجتماعية أخرى، لاسيما بين الباحثات، أو إدارية لا تُعين على الصفاء الذهني للبحث العلمي. ولذا عمدت اللوائح على التوكيد على التفرُّغ العلمي، الأمر الذي أحدث إشكالاً إدارياً وعلمياً، حال دون تحقيق طموحات بعض الطموحين، ومن ثمَّ لجؤهم إلى الدراسة العليا في الخارج، عن طريق الانتساب، مما أحدث إشكالاً لدى بعضهم، عند رغبتهم في اعتماد شهاداتهم من قبل الجهات المعنية في وزارة التعليم العالي، في الوقت الذي تختلط فيه الأمور بين الطموحات العلمية والطموحات الإدارية، لمن يريدون تحسين أوضاعهم الوظيفية، أو الواجهة الاجتماعية لم يريدون الواجهة ولو كانت غير حقيقية. أدَّى هذا الوضع إلى إعادة النظر في شرط التفرُّغ للدراسات العليا؛ إذ لم يتحقَّق المستهدف من هذا الشرط، بل ربَّما قيل إنَّ حال البحث العلمي قد ازداد سوءاً، فزادت الشهادات العليا عن طريق المراسلة، أو الدراسة عن بُعد distance learning ولم يقولوا distance studying والتعلُّم غير الدراسة ومن الأولى أنه غير البحث العلمي، رغم وجود تقنيات التعلُّم واعتمادها على التعلُّم عن بُعد باستخدام وسائل الأتصال وتقنياته، أو عن طرق أبواب مؤسسات علمية متهاونة في "صرف" الشهادات العليا.

الوقفه الرابعة: المدَّة

تقضي التقاليد العلمية أن يُعطى الباحث مدَّة متوسِّطة لإنجاز بحثه فيها، تكون فيها، غالباً، معاناة وتطلُّع. ومن الباحثين من ينجز البحث في غضون هذه المدَّة، فلا يصل إلى نهايتها، ومن الباحثين من يحتاج إلى التمديد لإكمال بحثه. أمَّا الباحث الذي ينهي بحثه في أقل من نصف المدَّة المعطاة فإني أضع علامة استفهام عريضة حول هذا الإنجاز، ذلك أنَّ المدَّة المعطاة هي متوسِّط ما يتوقَّع للباحث أن يحتاجه من وقت، وتقبل الرسالة بعد مضي نصف المدَّة.

مع أنَّي أرى أنَّ الباحث الذي يُنهي بحثه قبل نهاية المدَّة بوقت كافٍ ينبغي له أن يترَيَّث، ويراجع بحثه، بالتنسيق مع المشرف، فيتدارك ما قد يكون فات عليه أثناء إعداد البحث. وأيُّ مراجعة لأيِّ عمل بشري تؤدي فيه إلى الزيادة أو الحذف أو التحوير يوصل في الغالب بالبحث إلى قريب من درجات الكمال. وقد ذكر مرتضى، السيِّد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي في كتابه إتحاف السادة المثقَّين بشرح إحياء علوم الدين يقول: «وكتب أستاذ البلقاء القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني، معتزلاً عن كلام استدركه عليه: إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به وذلك أنَّي رأيت أنه لا يكتب إنساناً كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر». (٢) وكتب الثعالبي، أبو منصور عبدالملك النيسابوري (ت ٤٢٩هـ) في مقدِّمة كتابه يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: «وحين أعرته (أي كتاب يتيمة الدهر) على الأيام بصري، وأعدت فيه نظري، تبيَّنت مصداق ما قرأته في بعض الكتب: إنَّ أوَّل ما يبدو من ضعف ابن آدم أنَّه لا يكتب كتاباً فيبييت عنده ليلة إلا أحبَّ في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنتين عدَّة؟». (٣)

(٢) القاضي الفاضل، عبدالرحيم البيساني (٥٢٩ - ٥٩٦هـ)، والعماد الأصفهاني (٥١٩ - ٥٩٧هـ). انظر: محمد بن علي بن محمد الصامل. الأسلوب الحكيم:

دراسة بلاغية تحليلية، مع تحقيق رسالة في بيان الأسلوب الحكيم لابن كمال باشا ودراساتها - الرياض: دار إشبيلية، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م - ص ١٢.

(٣) انظر: الثعالبي، منصور بن عبدالملك النيسابوري، أبا منصور. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر/ شرح وتحقيق مفيد محمد قمحية - بيروت: دار الكتب العلمية.

ويقول ابن منظور في لسان العرب: «وإني لم أزل مشغولاً بمطالعات كتب اللغات والاطلاع على تصنيفها وعلل تعريفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أما من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجده جمعه، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع».

الوقفه الرابعة: الإشراف

وتقضي التقاليد العلمية أيضاً أن يسير البحث تحت ناظري المشرف، وأن يتابع المشرف الباحث خطواته خطوةً بخطوة، فيقرأ له بحسب خطة البحث التي يتفقان عليها، إما فصلاً بفصل، أو أقل من ذلك أو أكثر. والأولى ألا تزيد قراءات المشرف على البحث عن الفصل الواحد، وكلما قلت وقفات القراءة والمناقشة بين المشرف والباحث كان ذلك مدعاةً لمزيد من الإتقان. المشرف يمارس هنا دور الموجه للباحث الداعم له الفاتح له آفاق البحث المكمل له ما يعجزه من نقص أو تقصير في قدرته على السيطرة على البحث وعلى منهج البحث. ولا ينتظر أن يكون الباحث نسخة من المشرف من حيث الأفكار والاقتناعات، ولا يمارس المشرف دور المتفرد بالعلم في مجال البحث وموضوعه، ولكنه يمارس دور المرشد الذي يحرص على "صنع" باحث محتمل قد يبرز أستاذه، فيتحمّل المشرف قدرًا من وجهة البحث من حيث القوة والضعف. ومن هنا يمكن القول إن المشرف القوي يخرج عادة دارسين وباحثين أقوياء، والمشرف الضعيف يتخرج على يديه عادة باحثون ودارسون ضعفاء، ومن هنا حُسبت البحوث على مشرفيها وحسبت لها ساعات في نصاب الأستاذ. وهي مسؤولة ليست باليسيرة. كما أنّها أمانة علمية مقدورٌ عليها - بإذن الله -.

الوقفه الخامسة: الخطة

من توحّي الدقة لدى بعض الباحثين التزامهم التام بخطة البحث. وهذا مطلب ملزم، ولكنه ليس إلزاماً على إطلاقه، إذ يتبين للباحث أثناء سيره في بحثه أن هناك رغبة في الزيادة، أو الدمج بين تقسيمات البحث القائم على التطبيق العملي العلمي للخطة، ذلك أنّ الخطة إنّما هي معلّم في الطريق للوصول إلى النتائج، ومن ثمّ الانتهاء من البحث، على الصورة التي يرضى عنها الباحث والمشرف والكلية والمناقشون.

لا بدّ أن يحصل تحوير للخطة أثناء سير البحث، وإلا اضطرّ الباحث إلى السير في النقطة أو النقاط محلّ الإشكال عن غير اقتناع منه، وإذا ما سئل عن هذه النقاط سؤالاً علمياً أعاد السبب إلى الخطة أو إلى المشرف، وإعادة السبب إلى الخطة أو المشرف فيه دلالة على عدم اقتناعه بجدوى هذه النقطة أو تلك. وهذه توصية للباحثين والمشرفين للنظر في إمكانية التحوير في خطة البحث بجرية علمية تامّة، وبموضوعية متناهية، هي مطلب من مطالب البحث، على ألاّ تستغل هذه النقطة للتهرب من بعض نقاط الخطة، أثناء البحث بحجة عدم جدواها، أو للتسهيل، وسرعة الإنجاز. وقياس هذا يعود إلى الباحث والمشرف.

الوقفه السادسة: المناقشة

كما تقضي التقاليد العلمية أن يخضع البحث والباحث للمناقشة، قبل أن يُقبل ببحثه مؤهلاً له للمرحلة العلمية التي يصبو إليها، والتقاليد العلمية تقضي أن يكون هناك أكثر من مناقش، بحضور المشرف أو المقرر وإدارته للمناقشة، كما تقضي بعض التقاليد العلمية أن يُختار المناقشون بعد الانتهاء من إعداد البحث وربما تجليده تجليداً فاخراً، وكأنه قد اكتمل، وبعد أن يقرّ المشرف صلاحية الرسالة لتكوين لجنة المناقشة. والأولى أن تكون لجنة المناقشة مع بداية انطلاق البحث.

على أي حال إذا تبين للجنة أنَّ الباحث مسيطر على فكرة البحث ومسايرها أعطيت الدرجة التي يستحقها، وإلا أعيد النظر في البحث، بالتعديل أو التغيير أو التحوير. كل هذا على مرأى ومسمع من المشرف ومن الجهة العلمية المسؤولة عن الدراسات العليا والبحث العلمي في الكلية.

لهذه التقاليد وللرغبة في الإلتقان العلمي نجد أنَّ الباحث يتوخى الدقة المتناهية في إعدادة للبحث. هذه الدقة التي تصل أحياناً إلى حدِّ المبالغة والإفراط، والوسطية مطلوبة في كل شيء، فلا إفراط ولا تفريط، حتى في البحث العلمي.

لست بأي حال أتفق مع من يذهب إلى أن تكون المناقشة مركزة على تسقط الأخطاء، وجعلها مجالاً لاختبار الباحث وإحراجة أمام زملائه وأساتذته والحاضرين للمناقشة. كما أنني لا أتفق مع أولئك الذين يجعلون من وقت المناقشة مجالاً لاستعراض آرائهم في مجال البحث، وإنما يأتي الرأي، وهو مطلوب، وعرضاً، ولا يلزم به الباحث، مادام لم يتعدَّ كونه رأياً. ولا أقصد من هذا أن نربت على كتف الباحث أو الباحثة ونقوده إلى نهاية المناقشة قوداً، فلا هذا متوقَّع، ولا ذاك مطلوب.

والأصل أن تبين حسنات الرسالة قبل الولوج في الملاحظات عليها. كما أن الأصل أن الملاحظات على الرسالة قابلة للنقاش، يجليها الباحث، بحسب قدرته وسيطرته على البحث، وليست جميع الملاحظات تُعدُّ أخطاءً بالضرورة إلا الخطأ الذي لا يقبل الجدل.

والأصل أن المناقش، وقد اختير لمكانته العلمية في مجال التخصص، ولقرب الموضوع المبحوث من مجال اهتماماته، لديه القابلية للإفادة من الرسالة، كما هو متوقَّع منه أن يفيد هو الباحث في بحثه. وهذا هو ديدن العلماء، الذين كلما زاد علمهم زاد تواضعهم، وقلَّ إنكارهم. على أنه يمكن القول، في مجال المناقشة، كما في غيره، إنه كلما قلَّ علم المناقش زادت اعتراضاته. ولا أسوق هذه الانطباعات على أنها عادات فاشية في عالم مناقشة الرسائل، ولكني لا أخفي وجودها بين بعض المناقشين والمناقشات.

الوقفه السابعة: الملاحظات

لا بد من وجود ملحوظات على أي بحث، ذلك أن البحوث يعدُّها بشر، وعمل البشر يخضع للصواب والخطأ، بل والتقصير. وتفاوياً نقول: إنَّ أبحاثنا فيها صواب يَحتمل الخطأ، ويبيِّن المناقشون بعض الملحوظات، وهم ناقدون بصيرون، لا يتوخون الخطأ، ولا يتسقطون الزلات، ولكنهم يقعون عليها أثناء قراءتهم الفاحصة للرسالة، فينبهون الباحث إلى الخطأ الذي قد يستدعي التعديل، إلا إذا رأى المناقش أنَّ نقطة ما خطأ، فيبين الباحث أنها صواب، فيتراجع المناقش عن نظرتة، ويحترم رأي الباحث بعلمية ورحابة صدر، لاسيما أن المنتظر من الباحث أن يكون مسيطراً سيطرةً تامَّةً على مجريات البحث.

تقسَّم الملاحظات على الرسالة عادةً إلى ثلاث فئات؛ الملحوظات المنهجية، والملاحظات اللغوية، والملاحظات العلمية. وتقوم الملحوظات المنهجية على أن هناك نمطاً منهجياً سائداً تسير عليه الرسائل العلمية، سواء ذكرت المنهجية في ناياب البحث، وفي الفصل التمهيدي، أم لم تذكر. والأصل أن تقدِّم الكلية لجميع الباحثين والباحثات والدارسين والدارسات دليلاً عاماً لإعداد المخطَّط والبحث، من حيث المنهجية وطريقة إعداد البحث، وتقسيمه ومصادره ومراجعته. والأصل كذلك أن تكون هناك نقاط منهجية تمثِّل الحدَّ الأدنى من المنهجية تتفق عليها الجامعات ومراكز البحوث العربية، ثم تترك الزيادات بحسب التخصصات وبحسب رغبة بعض المؤسسات التعليمية والعلمية الانفراد بها. ولا يسوغ استيراد مناهج البحث من مدارس أخرى لتكون مجالاً للتنافس غير العلمي بين هذه المؤسسات.

لست بصدد ذكر منهج البحث، هنا، أو الإسهام في هذا الدليل، الذي يستعين به الباحث - بعد عون الله تعالى - من حيث تبيان مشكلة البحث وأهميته وأهدافه وأسئلة البحث وحدوده ومصطلحاته والدراسات السابقة عليه ومساره، فهذه خطوات معلومة ابتداءً، وقد تكون فيها اختلافات بحسب التخصص العلمي.

أولاً: الملحوظات المنهجية

الملحوظات المنهجية تزيد وتنقص بحسب سيطرة الباحث على مناهج البحث وتفاعله مع المدة التمهيديّة التي درس فيها نظرياً مناهج البحث، والأصل أنه قدّم فيها تقويماً واختياراً واحتجازاً بتفوق. من أبرز الملحوظات المنهجية عدم وضوح منهج البحث لدى الباحث، فقد لا يدرك أنه تتبّع المنهج الوصفي، ويخلطه بالمنهج التجريبي أو الإحصائي أو التاريخي... وهكذا. وتراه ينصّ في الفصل التمهيدي على منهج واحد من مناهج البحث، ثم تراه مرّة ثانية يلجأ إلى أكثر من منهج واحد، لأنّ تحليل المعلومات التي جمعها بأيّ طريقة ألجأه إلى الاستعانة بأكثر من منهج. هناك ملحوظات منهجية تفصيلية متعدّدة تتعلّق بمسار الرسالة من حيث السير على نمطية متّسقة في التعبير عن الأفكار، فيما له علاقة بالصياغة والشكل، سواء في المتن أم في الهوامش. ومن أهمّ الملحوظات المنهجية من خلال استقرائي للرسائل العلمية التي أطلعت عليها وشاركت في مناقشتها، مع قلّتها، أعدت هذه الملحوظات نماذج ولا أزعم شموليتها أو أنّها مما يقع فيه جميع الباحثين:

- أ. اختيار المصطلحات الإجمالية، وتعريفها في الفصل التمهيدي، ثم مخالفتها في مسار الرسالة. والأصل أن يلتزم الباحث بالمصطلح الإجمالي الذي عرّف به في الفصل التمهيدي.
- ب. عدم الاستقرار على كتابة الأعلام وعنوانات الكتب والمقالات في ثنايا البحث، فأحياناً تحبّر "تسوّد" الحروف، وأحياناً أخرى توضع بين قوسين، وثالثة توضع بين علامتي تنصيص، ورابعة توضع بين شرطين، وخامسة لا تميّز، وهكذا. والأصل أن تحبّر "تسوّد" الأعلام وعنوانات الكتب وأسماء الدوريات، لاسيّما مع توافر تقنيات الطباعة.
- ج. عدم الاستقرار على مداخل الفصول، فأحياناً يمهدّ الباحث للفصل وأحياناً أخرى يدخل الباحث مباشرة في الفصل. والأصل أن يكون لكل فصل تمهيد، على ألا يطول التمهيد، وإنّما هو مدخل نظري لما ينوي الباحث مناقشته، من خلال المعلومات التي حصل عليها بأيّ منهج من مناهج البحث، وكانّ هذا التمهيد نظراً معيارية لمضمون الفصل، تُذكر فيه آراء المعتمدين في التخصص حول فحوى الفصل.
- د. عدم الاستقرار على نهايات الفصول، فأحياناً يلخّص الباحث الفصل، ويودع النتائج في الخلاصة، وأحياناً لا يلخّص ولا يضع نتائج. والأصل أن يلحق كلّ فصل بملخّص له.
- هـ. عدم الاستقرار على وضع نتائج الدراسة، فأحياناً توضع النتائج في ثنايا البحث، وأحياناً توضع في الخاتمة أو الفصل الأخير المخصّص للنتائج والتوصيات. والأصل أن توضع في الفصل الختامي.
- و. عدم الاستقرار على وضع توصيات الدراسة، ومثلها مثل النتائج توضع أحياناً في ثنايا البحث، وأحياناً توضع في الفصل الختامي المخصّص للنتائج والتوصيات. والأصل أن توضع في الفصل الختامي.
- ز. عدم الاستقرار على رصد المصادر والمراجع رسداً وراقياً "ببليوجرافياً"، من حيث ترتيب البيانات الوراقية "الببليوجرافية"، وهو ما نسمّيه في فن الفهرسة بالوصف الوراق "الببليوجرافي". والأصل، الثبات على الحد الأدنى ممّا اتّفق عليه أهل هذا الفنّ، والسير على ذلك في الرسالة كلها.

- ح. عدم الاستقرار على ما يضمن في قسم الملاحق، فتجد بعض الباحثين يرمي كل شيء في قسم الملاحق، وربما وضع في هذا القسم ما له علاقة مباشرة بمتن البحث، وربما وضعت معلومات لا تستحق أن توضع في الملاحق. وهذه يتعاون عليها كل من المشرف والباحث، في اعتبار ما يوضع في الملاحق وما لا يوضع.
- ط. عدم الاستقرار على علامات التقييم، وإن كانت هذه داخلة في الملحوظات اللغوية، وفي الشكل العام للبحث، إلا أنها ترقى إلى أن تكون ملحوظة منهجية، إذا ما خلط الباحث في وضعها، فلا مبرر بين الفاصلة والنقطة والنقطتين فوق بعضهما، وغير ذلك من علامات التقييم التي توضع لتعين على فهم الأفكار ومتابعتها.
- ي. وضع أسئلة البحث في الفصل التمهيدي، وصياغتها صياغة جميلة، ثم إهمالها في ثنايا البحث، بعدم الإجابة عليها صراحة، أو بعدم الإجابة عليها البتة. والأصل في الباحث إذا وضع أسئلة البحث أن يجيب عليها صراحة في تحليله للمعلومات، بل إنني أرى أن ينص على ذلك، ويعيد سؤال البحث الذي أحاب عليه في موضع الإجابة عليه من البحث.
- ك. يلجأ بعض الباحثين إلى الاستئناس بمعلومة ينقلها من مرجع ناقل لها من مرجع أو مصدر آخر. والأصل أخذ المعلومة من مصدرها أو مرجعها الأساسي، أو ينص الباحث على المصدر أو المرجع الأساسي نقلاً عن المرجع الناقل. ولا يقبل بهذه المناسبة نقل حديث شريف من غير كتب الحديث الشريف المعتمدة عند المسلمين بعد التحرير.
- ل. يلجأ بعض الباحثين إلى الاقتباس من مصادر أو مراجع، ويفوت على الباحث بحسن نية أن يضع هذا الاقتباس بين علامتي تنصيص، ثم الإشارة المباشرة إلى المصدر أو المرجع مع نهاية الاقتباس، لكنه يثبت هذا المصدر أو المرجع في القائمة، في نهاية البحث. وهذا خطأ منهجي يصل إلى حد الخيانة في المنهج، وإن لم يصل إلى أن يكون سرقة علمية؛ لإثبات المصدر أو المرجع في نهاية البحث.

ثانياً: الملحوظات اللغوية

هناك، ولا بُد، ملحوظات لغوية هي من الأهمية بمكان، ذلك أن البحث جوهر واللغة مظهرها ولباسها، ومن منّا من لا يريد أن يظهر هذا الجهد. مظهر ممتاز، خالٍ من البقع الملوثة للجوهر. وعدم سلامة اللغة دليل على عدم وضوح الفكرة لدى الباحث، وسوء الصياغة مدعاة إلى سوء الفهم لدى القارئ، المستفيد من البحث.

لست أطالب الباحثين بإتقان اللغة العربية كما يتقنها متخصصوها، كما لا أطلب الباحثين بالتقعر في اللغة صياغةً وأسلوباً، إلا أنني أطلب جميع الباحثين والباحثات بأن يطبقوا قواعد اللغة العربية نحوها وصرفها، تلك التي تعلمناها منذ السنة الرابعة الابتدائية. وإذا قصر الباحث عن إتقان الجانب اللغوي، فلا غشاضة في أن يلجأ إلى أحد المتخصصين باللغة، يقرأ رسالته ويجري عليها التصويبات اللغوية اللازمة، لتظهر الرسالة في النهاية بالمظهر الذي يليق بالباحث والمشرف والمؤسسة التعليمية التي ينتميان إليها.

لست أتهاون في مسألة اللغة، لاسيما أننا نتحدث هنا عن لغة القرآن الكريم، ونحن من أولى من يغار عليها، ويلتزم بها في جميع شؤوننا الخاصة والعامة، فما بالك بالبحوث العلمية. ومع أنني أميل إلى عدم جعلها مجالاً للمناقشة أثناء المناقشة، كسباً للوقت، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية اللغة السليمة في بناء البحث. ويترتب السامع والقارئ لسلامة البحث لغوياً، وينشرح الصدر للسان الفصيح، ويفيد منه. ويتكدر من البحث الذي يستهين باللغة، ولا يخفي عدم احترامه وعدم تقديره لأي بحث لا يقيم للغة وزناً.

- أ. وقد شاعت بيننا أخطاء لا تُقبل، وبعض هذه الأخطاء منقول من لغات أخرى، هي فيها ليست أخطاء، مثل إضافة أكثر من مضاف واحد إلى مضاف إليه واحد. وقد قالت العرب في ذلك: (قطع الله يد ورجل من قالها).
- ب. وشاعت في الكتابات العلمية صرف الممنوعات من الصرف؛ للعلل الثماني التي درسناها.
- ج. وشاع لدى بعض الباحثين والباحثات الخلط بين كسر همزة إنَّ الناسخة وفتحها. وحبذا لو اهتمَّ الباحثون والباحثات بالتشكيل هنا، لاسيما مع الكلمات التي تستدعي ذلك. وهذا جزء من تحسين مظهر الرسالة.
- د. وشاعت بين بعض الباحثين والباحثات عدم القدرة على السيطرة على تمييز العدد نحوًا وتصريفًا.
- هـ. وشاعت بين بعض الباحثين والباحثات عدم القدرة على التفريق بين همزة الوصل، التي لا تُثبت كتابةً ولا نطقًا في وصل الكلام، وهمزة القطع التي تكتب وتنطق.
- و. بل شاع بين بعض الباحثين والباحثات الخلط بين علامات الإعراب من رفع المنصوب، ونصب المرفوع، وكسر المرفوع أو المنصوب، لاسيما عند التثنية وجمع المذكر السالم، حيث تظهر الحركات حروفًا، ولا ينفع معها التسكين للسلامة... وهكذا جملة من الأخطاء لا تُنتظر من باحث أو باحثة مهما كانت الأعذار.

ثالثًا: الملحوظات العلمية

أما الملحوظات العلمية فهي مع وجودها وكثرتها إلا أنَّ لها خصوصيةً تنبع من الموضوع المبحوث، والقدرة العلمية على السيطرة عليه، من حيث دقَّة المعلومات وصحَّتها وجَدَّتْها، ولذا فإنَّه لا تعميم في الملحوظات العلمية. إلا أنَّ المناقشة التالية هي تلك التي تركز على الملحوظات العلمية. ويتحقَّق فيها مفهوم المناقشة القائمة على الحوار العلمي الهادئ، الذي يهدف إلى إثراء الموضوع، والإضافة عليه، بحيث يستفيد المناقشون كما يستفيد المناقش، وبحيث ينطلق الباحث إلى آفاق البحث العلمي، لتكون هذه الرسالة هي المنطلق للسيطرة على هذا الطريق الطويل.

يمكن القول: إنَّ الإشراف والموضوع ومعالجته بين الباحث والمشرف هي المنطلق، فكم باحثٌ أبدع في بحوث لاحقة؛ بسبب من قوَّة المشرف العلمية والمنهجية، وقابلية الباحث لهذه القوَّة، وإدراكه أنَّها تصبُّ في مصلحته.

في المقابل خبتت جهود بعض الباحثين؛ لأنَّهم لم يوفَّقوا إلى مشرف يدفعهم إلى ميادين العلم، أو اكتفوا من المشرف بالحدِّ الأدنى من المعالجة العلمية. واكتفى المشرف، كذلك، بالحدِّ الأدنى من المخطَّط. هذه النماذج موجودة في المؤسسات التعليمية العليا، وهي شائعة، وبها "ضاع" عدد معتبر من الباحثين الواعدين، وإنَّ كانوا قد حصلوا على المؤهَّل أو الانطلاقة، ولكنَّها كانت انطلاقة عرجاء. وبضدِّها تميَّز الأشياء.

لا ضابطٌ لهذه الحال يمكن أن يوضع على الورق، على شكل قواعد أو ضوابط أو تعليمات، أو أيَّ شكل من الأشكال الرقابية الضابطة بشريًّا. هي مسألة دمة علمية لا تضبط عندنا إلا بمخافة الله تعالى، ثمَّ باحترام التقاليد العلمية/الأكاديمية، من قبل الأفراد، لاسيما الهيئة التدريسية.

إنَّ هناك أياديَ مختلفة تشارك في إعداد البحث، وقد لا يكون للباحث المعنيُّ بها نصيبٌ إلا جزءً يكاد يكون متساويًا إذا تفاعلنا مع تلك الأيادي التي أسهمت في إعداد البحث. يمكن تحسُّس ذلك من خلال الاختلاف في الأسلوب والمعالجة العلمية والمنهجية في الرسالة الواحدة، بل ربَّما في الصياغة اللغوية، التي يمكن أن يميَّزها دارسو الأساليب بين فصل وآخر من فصول الرسالة.

لا تتوقّف الأعراف العلمية/الأكاديمية عند هذا مكتوفة الأيدي، بل إنّ هناك عقوبات تُتخذ عندما يثبت هذا الاتّهام، أقلّها سحب المؤهل العلمي، ثمّ التشهير بصاحبه وبمن تواطأ معه في الأوساط العلمية. إلّا أنّ المسألة تكمن هنا في صعوبة اكتشاف مثل هذه الحالات على وجه اليقين. ولا تُنزل عقوبة إلا عند اليقين من وقوع الذنب. ويدخل في هذا المفهوم مسألة انتحال بعض الأعمال العلمية، دون إشارة ولو من بعيد إلى أصحاب هذه الأعمال الأصليين.

إنّ هذا ليس اتّهاماً مبطناً، بل هو في واقع الحال اتّهامٌ صريح لا ينفرد به كاتب هذه الملاحظات، وتعاني منه "الساحة" العلمية، ليس على المستوى المحلي، ولا الإقليمي، بل إنها مشكلة علمية عالمية، بحيث يتحدّث المعنيون بها بتعبير "دكاكين البحوث" كما يتحدّثون عن "دكاكين الشهادات"، حينما يحصل الطالب على مؤهلات عليا بأقصر طريق وأيسره. وعلى أيّ حال البقاء للأصلح، ولا يصحّ إلاّ الصحيح، كما يُقال، فالبحث العلمي لا يتوقّف عند إنهاء البحث المطلوب للشهادة، إنّما يبدأ البحث العلمي مع ذلك. وهكذا كانت انطلاقة بعض الباحثين الذين صدقوا النية وعقدوا العزم على الإسهام في النهضة العلمية، فكانوا من الناجحين.

والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل.